

نثرتها في الهواء ، ذريتها ، / هواء وطني الخائق ، / قدمتها ذبيحتي / لا نباتا لا حياة / في اللحظة الاولى / في بلادي . / على وجهي ارتيمت .

أرضي بوار ، / مدننا صوامت ، / هجرتها العقبان حتى ، / أشجارها اجثت ، / ترابها وحل وبراز . / ليست لي الأرض هذي / لم أرها فيما مضى ، / قلبي بعيد / تجد قدماي في لحاقه .

تسعيان للمنى ، من جديد ؟ / تسعيان للمنى . / أرضي لم تكن أرضي / التي عدت أمس اليها : / حفنة تراب / فقدتها / أرضي .

وهنا يظهر اغتراب الشاعر تجاه وطنه اغترابا كاملا . فهنا الحب الذي يبدو وكأنه استحلال كراهية ومهد الطريق للمنى الجسدي الاختياري . ولكن توفيق كان قبل ذلك منغيا وسط شعبه . فوطنه فلسطين كان صعب المنال وكذا كان مثاله . لقد كان مصيره ان يعيش منغيا الى الابد .

الحبيبة : ان المرأة بالنسبة له ، مع انها مصدر شعري ، لم تكن مبعث حب رومنطقي بل مبعث حب ساحق ومعذب جدا وربما أيضا مصدر خطيئة أنهكه الى حد الموت .

لقد استوحى ثلث قصائد مجموعته « ثلاثون قصيدة » من الحبيبة . الا اننا لا نعلم من هي تلك الحبيبة أو ما اذا كانت هي حبيبة من حبيبات . اننا نقرأ في قصيدته السادسة عشرة عن حب جميل وقصير الاجل :

كالبقرة في منتصف ليل شتوي / ومضت ، / كالبرقة لمعانا وخطانا ، / لا رائدة غيث ولا بشرى ربيع . / لعت ، ولع الافق ، / واخفيت أبدا ، وكان ما كان ما كان .

عرفتك / وأنا انا من الزهر خلو ، / فكنت الزهر : لكن ما كان أسرع ما غني ، / وأنا ديوان ليس فيه شعر ، / فكنت الشعر : لكن ما كان أقصر غيرته ، / وأنا هيكل غاب عنه القدس ، فكنت القدس : / قدسا واشتبهتك .

وغبت وغبت ، / واستكان القلب ، من غير هدوء / وارتمى الفكر ، من غير سنة ، / ولكن أحقا أتيت ؟ / وحقا كنت ؟ / وكنت ؟

وفي قصائد حب أخرى من المجموعة ذاتها نرى سعادة وبهجة طفولية ، نظرات عفيفة ، عيون مثل بحيرات زرقاء تبعث في النفس رغبة في السباحة فيها . ثم نسمع توفيق يتحدث عن « نقص حفي اليم » في حبه « الى أن انزاح الستار الأخير » . ويقول بعد أن يتحدث عن الازدراء والخيانة والهجر :

كذا يكون الرحيل : / مطهر امانتي وارتياب / فرعشة نعيم / تحمي في جحيم سرمدى ؟

اما في قصائده (في المجموعة ذاتها) التي يخاطب فيها الله فاننا نسمع صوت خاطيء تأنب أحيانا ومتمرد أحيانا أخرى . الا اننا لا نعلم ما هي خطيئته ولكننا نراه يبحث في القصيدة الاولى في مجموعته « ثلاثون قصيدة » عن « الملذات » في الظلام ثم يعترف بقوله :

في لحظات الذرى رأيت الهاوية ، / ومع نشيق العطور تشقت الضنوط .
ثم يتساءل توفيق :

أنا اللوم / اذا استداع القتل ولم يتدرج المفتاح / الا في منزل على جبين ريقه / وصمة كوصتي ؟

الا ان الشاعر يواجهنا في « القصيدة ك » التي صدرت في العام ١٩٦٠ بنوع آخر من الحب ، وانني أعتقد ان هناك حبيبة أخرى . الا ان ثلاثا فقط من الخمس وعشرين قصيدة التي تضمها هذه المجموعة مستوحاة مباشرة من الحبيبة ولكن تأثيرها يسير بقوة في كل القصائد الاخرى . وربما كان ذلك سبب اطلاق اسم « القصيدة ك » على هذه